دور عائلة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف في الحركة الوطنية الجزائرية

بقلم

عاشوري قمعون

أستاذ مساعد مكلف بالدروس بقسم التاريخ

جامعة الوادي . الجزائر .

الملخص :

لعبت شخصية الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف دورا فعالا في مقاومة الاستعمار الفرنسي، كما اقتدى به ابنه محمد الهاشمي، شيخ الطريقة القادرية بسوف، وحفيده الشيخ عبد العزيز الشريف في دور مزدوج : في الحركة الإصلاحية، وفي الحركة الوطنية، وتنازل عن جميع أملاكه في البلاد التونسية لفائدة الثورة الجزائرية.

Résumé :

La personnalité du Cheikh Brahim Ben Ahmed Chérif a joué un rôle efficace dans la résistance contre le colonisateur françaisEl-Hachemi,chef de ainsi que son fils M[ed]la confrérie Kaderie dans le Souf , et Son petit fils Cheikh Abdelaziz dans un rôlebilatéral: dans le Mouvement Réformiste, Et Mouvement Nationaliste, et s'est désisté De tous ses biens sis en Tunisie, en faveur
De la Révolution Algérienne.

مقدمة:

لعبت جل الطرق الصوفية دورا رائدا في نشر العلم والأخلاق الفاضلة في أوساط المجتمعات التي تنتشر بين أفرادها، كما قام البعض منها بدور سياسي حيال الاستعمار الفرنسي. والسؤال المطروح هو: هل وقف زعماء هذه الطرق الصوفية موقف المحايد غير الآبه بما يجري في بلده من استعباد وظلم ناتج عن الوجود الاستعماري؟ أم أن هناك من هؤلاء الزعماء من حمل السلاح ووقف إلى جانب وطنه غير مهتم بما تدره عليه مكانته الدينية في أوساط أتباعه من أموال وعقار وأراض زراعية وأوقاف مختلفة ومتعددة؟ إن الشيخ إبراهيم الشريف ـ شيخ الطريقة القادرية في نفطة والوادي ـ قد اتصل به الأمير عبد القادر باعتبار أنهما ينتميان إلى نفس الطريقة الصوفية، والتمس منه أن يعمل على تجنيد أتباعه ومريديه في الناحية الجنوبية الشرقية من الوطن الجزائري، فقام الشيخ إبراهيم بهذه المهمة أحسن قيام، بل قد أقحم كل عائلته في الحركة الوطنية الشاملة. فمن هو الشيخ إبراهيم هذا؟ وما الدور الذي قام به شخصيا، وكذلك دور أبنائه وأحفاده؟

نسبه:

هو الشيخ إبراهيم بن أحمد بن محمد بن عطية بن إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن عيسى ابن أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الله بن أحمد بن سيدي أحمد الغماري بن عبد الوهاب بن عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي بن عيسى بن مزور بن حضير بن ضرار بن محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن أبي محمد الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب زوج فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ [1].

أصله:

يعود أصله الجزائري إلى قبيلة البوازيد العربية الهلالية المنتشرة بين فوغاله وبسكرة[2]. ولد بنفطة عام 1229هـ/1813م[3]. تركه والده صغيرا فتربّى في أحضان جده من الأم وهو الولي الصالح سيدي بن ضيف الله فورث عليه الصلاح[4]. وعندما كبر تتلمذ على يد الشيخ أبي بكر الشريف دفين زاوية توزر القادرية. أسس زاوية نفطة عام 1251هـ/1835م، كما أنشأ زاوية المنعة بباتنة عام 1280هـ/1863م والمعروفة بزاوية بلعباس. ثم ذهب إلى البياضة جنوب الوادي والتي كانت بها زاوية

قادرية قديمة أسسها والده الشيخ أحمد بن محمد، وذلك من أجل وضع قواعد زاوية أخرى أتمّها ابنه الشيخ محمد الهاشمي فيما بعد[5].

تحالفه مع الأمير عبد القادر:

اتفق مع الأمير عبد القادر على عقد أحلاف مع القبائل المجاورة للحدود الجزائرية التونسية، حيث اتصل بجميع القبائل وتزوج من بعضها. لذا نرى أن عائلة الشيخ إبراهيم تنتمي لعدة مناطق مثل سوف وتبسه وسوق أهراس وعنابه والقصور وقبلي وقفصة وتوزر ونفطه وقابس وتونس وتمغرة وكلها مرتبطة بنفس العائلة الشريفة. ولهذا ساعد الأمير عبد القادر في ثورته بناحية سوف وأمدّ المقاومة بقطع اللويز الذهبية[6]. كما كان يجتمع بقبائل سوف تحضيرا للمعركة في القبة التي بناها الشيخ البكري في حي الزاوية بالرباح. وهكذا أرسل القائد بن ناصر ابن شهرة والشريف محمد بن عبد الله إلى الأغواط للانضمام للقبائل المنتشرة بين الأغواط وسيدي مخلوف[7].

وقد قيل أن تأثير الشيخ إبراهيم قد وصل عام 1315هـ/1897م إلى غدامس وغات والجزائر وعين صالح وتوات وتيديكالت، وله أتباع في بلاد الطوارق وعلى رأسهم الشيخ عابدين الذي صار فيما بعد مقدم الشيخ محمد الكبير بن إبراهيم[8].

توفي عام 1292هـ/1875م بنفطة وضريحه مشهور بناحية رأس العين[9].

أبناؤه وأحفاده:

ترك الشيخ إبراهيم عددا كبيرا من الأولاد بلغ عددهم 13 ولدا ذكرا. كما خلف فاطمة وسكينة ومسعودة وهي أكبرهن، سماها باسم أمه، وقيل ماتت وعمرها 115 سنة[10].

تقاسم الأولاد بركة أبيهم على النحو التالي:

1) الأكبر منهم وهو محمد تولى تسيير شؤون الزاوية الأم بنفطة. وأخذ المشيخة القادرية بالقطرين الجزائري والتونسي. وكانت حياته مشهورة بكرم الضيافة وإطعام الطعام والحث على أداء الصلاة وضرب تاركها من الطلبة والعائلة وحتى الجيران. كما كان يحث على حفظ القرآن الكريم والعلم. وكان مهابا محترما لدى أوساط السلطة الاستعمارية، تجول بتونس وبالجنوب الجزائري ووصل إلى سوف وورقلة.

ترك ثلاثة أبناء: المكي وهو الأكبر، وإبراهيم الذي تولى أمر الزاوية وشؤون الطلبة، وظهرت على يديه كرامات بالرغم من إدمانه على شرب الخمر. بالإضافة إلى الرشيد.

ترك المكي أبناء عاشوا عيشة مرضية، كما خلف الرشيد ابنا واحدا اسمه محمد المكي الشيخ الحالي لزاوية نفطة.

2) والابن الثاني هو الشيخ محمد العربي الذي ورث الصلاح على والده، وقد نازع أخاه محمد الكبير لإصلاح الزاوية، وعندما أصلحت حسم النزاع. وقد ترك ابنا اسمه أبو القاسم ورث الصلاح عنه، بالإضافة إلى كونه شاعرا عالما كريما.

ذهب الشيخ محمد العربي إلى قفصه وأسس بها زاوية بالعسالة، وهو مدفون فيها.

وترك أبو القاسم ابنين هما: علي والجيلاني، وقد عمرا بسيدي بوزيد وسارا سيرة مرضية مشهورة بكرم الضيافة. وعائلتهما تحظى باحترام كبير[11].

3) أما الشيخ محمد الحسين فقد أسس أولا زاوية بقمار شمال الوادي، وأسلمت على يديه الكاتبة الشهيرة إيزابيل إيبيرار Esabelle Eberhardt ، ولما اختلف مع العالم الإصلاحي عمار الأزعر انتقل إلى قبلي بتونس وأنشأ زاوية أخرى هناك وأنجب أولادا ما زال أحفادهم موجودين. مات بقبلي ودفن بزاوية سوق الأحد[12].

4) أما الشيخ محمد الأزهر فقد عمر الزاوية التي بناها والده الشيخ إبراهيم بأبه قصور قرب مدينة الدهماني بوسط الإيالة التونسية. ترك أولادا وتوفي بالزاوية ودفن بها. كما دفن معه إخوته الثلاثة: الكيلاني وهو عالم وشاعر بالفصحى والعامية، وترك بنتين. أما النوري والمداني فلم يعقبا[13].

5) أما سيدي علي فقد عمر زاوية الدير برأس العيون بولاية تبسة وكان واقعيا ومتصلبا مع قول الحق، كما كان يحفظ شيئا من القرآن. ترك ابنا اسمه بشير ولد عام 1898م وتوفي عام 1990م، كما ترك ابنا آخر اسمه الطاهر. توفي سيدي علي عام 1934م، ودفن بضريحه بالدير. ومن أحفاده الحاليين الشيخ الأزهر بن بشير وهو معلم متقاعد برأس العيون. وعبد الجليل بن الطاهر وهو مجاهد ومحام بمدينة

قسنطينة. بالإضافة إلى احمد بن محمد بن علي، وهو مدير إكمالية طريق عنابة بتبسة[14].

6) والشيخ الحاج أحمد - وأمه أمة سوداء[15] -، فقد عمر زاوية بقابس ثم انتقل إلى تبسة وأسس زاوية أكس بالحمامات. ترك أولادا منهم الشيخ الإمام، وكلفته الحكومة الفرنسية العامة بمهمة في غدامس. وهو الآن مدفون بضريحه بأكس الواقع جنوب شرق البلدة[16].

7) وأسس الشيخ محمد الإمام زاوية بالرباح جنوب الوادي ولكنه لم يشتهر بسبب قوة شخصية أخيه محمد الهاشمي من جهة ولكونه مات في سن الأربعين(1904) من جهة أخرى.

ترك أولادا منهم محمد الأمين وإبراهيم ومحمد الأخضر[17].

8) أما الشيخ محمد الطيب فإن أمه من شعانبة متليلي لهذا نلاحظ أنه جاء إلى ورقلة وأسس زاوية بالرويسات[18]. وقد رافق بعض الرحلات الاستكشافية لجنوب الصحراء ومنها رحلة بول سولييه Paul Soleillet عام 1873 انطلاقا من متليلي نحو عين صالح.

وقد قام الشيخ محمد الطيب برحلة في نحو عام 1885 من ورقلة إلى غدامس وكتب وصفا لرحلته وتركه عند أخيه محمد الكبير بزاوية نفطة، وهذا المخطوط الصغير هو الذي ترجمه أحد الفرنسيين من العربية عام 1898 حيث يقول إنها - أي الرحلة - هامة جدا، فهي بالإضافة إلى حديثه فيها عن المراحل التي سنذكرها، يتحدث أيضا عن الكتابات اللوبية أو الليبية القديمة والآثار الرومانية على طول الطريق. أما المراحل فهي: حاسي الغنامي، فحاسي أولاد صالح، فحاسي الدوي، فالحاسي الأخضر. وقد باتوا في زاوية مسجد سيدي ماهد(كذا) غير البعيد عن غدامس. وقد وصف غدامس وأبوابها السبعة والآثار الرومانية فيها. ومكثوا فيها ثمانية عشر يوما وقطعوا بعد ذلك جبال أقبو والهامل وعبروا بئرا وشجرة تسمى الطابية، ثم زريمة وبعد حوالي ثمانية عشر يوما في السير وصلوا غات وكانت تضم 300 ساكن حضري و250 من الطوارق يسكنون حولها. وقد جاء في الرحلة وصف حي للآثار والطريق والجبال والرمال والحيوانات والمياه. ثم توجهوا من غات إلى حدود تونس، وبالذات في تطاوين، وهناك وجدوا ضابطا فرنسيا فسلمه الشيخ

محمد الطيب المقبوض عليهم في مسألة دي موريس. والجزء المترجم من الرحلة لا يعدو عشر صفحات، ولا يعرف إن كان ذلك هو كل ما كتبه محمد الطيب أو أن المترجم جورج باري Barry قد اختصر المخطوط[19].

كما شارك في رحلة أخرى في خريف عام 1899م بقيادة الأستاذ فلامون Flumand بهدف اكتشاف منطقة تادمايت والتعرف على أحوالها الجيولوجية والنباتية وإمكانيات مياهها الجوفية وغيرها، غير أنها تحولت في الأخير إلى حملة عسكرية شرسة. وكان مع الشيخ محمد الطيب أربعون مهريا. غادرت البعثة مدينة ورقلة يوم 1899/11/28 متوجهة نحو عين صالح، ولما تفطن سكان عين صالح إلى نوايا هذه البعثة استعدوا للمقاومة، وقتل الشيخ محمد الطيب في قرية شروين القريبة من تيميمون عام 1901م ونقل جثمانه إلى مدينة ورقلة حيث دفن بالرويسات بزاويته المشهورة بالكرم وإطعام الطعام وتدريس الطلبة القرآن الكريم ومبادئ الفقه الإسلامي[20].

9) كما كان للشيخ إبراهيم أبن آخر اسمه عبد القادر ذهب إلى تلمسان وتوفي هناك[21].

10) أما أشهر أبناء الشيخ إبراهيم فهو بلا منازع الشيخ محمد الهاشمي الذي ولد بنفطة عام 1853م من أم جزائرية من عميش جنوب الوادي اسمها أم هاني بنت الحم التي تزوج أخوه محمد الكبير أختها وتدعى مسعودة[22].

حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة وتعلم أصول وقواعد الفقه بتونس[23]، جاء صغيرا إلى سوف وتربى في أحضان أمه بالبياضة حيث تزوجت محمد عبادي وأنجبت منه الطاهر وغيره. أسس زاوية البياضة في حوالي عام 1298هـ/1880م. وعند وفاة أخيه محمد الطيب عام 1901م، ذهب إلى الرويسات لتنظيم شؤون العائلة ولتعمير الزاوية هناك، فوجد السكان في حالة مجاعة بسبب السياسة الاستعمارية التي كانت تشجع الفساد بفتح دور البغاء وابتعد الشباب عن القيام بأمور دينهم، كما يتوجب عليهم التجنيد في الجيش الفرنسي لضمان لقمة العيش. وهكذا نلاحظ أن الشيخ أمر بنصب أباريق الشاي وتقديم خبزة مع الشاي لكل مصل يأتي لصلاة الصبح، وبذلك صار الناس يقبلون على الصلاة ويدخلون الطريقة القادرية وامتنعوا عن التجنيد، فاجتمع القياد السبعة بورقلة مع الحاكم

وطلبوا منه طرده فاستدعاه العقيد الفرنسي وأعطاه مهلة 24 ساعة لمغادرة ورقلة، وبذلك رجع الشيخ إلى الوادي بعد قضاء ثمانية أشهر هناك[24].

أعطى للطريقة القادرية اتساعا مضطردا في الصحراء، فوصل نفوذها حتى توات وتيميمون وغات وغدامس[25].

كان الشيخ محمد الهاشمي ذكيا جدا وسخيا جدا، يحترم أهل العلم، وقد اعتبره الفرنسيون بأنه شخصية جذابة ولكنها « متعبة» لهم لطموحه وتقلباته في نظرهم.

كما كان للشيخ الهاشمي مراسلات مع الزعيم الليبي سليمان الباروني باشا أثناء حرب طرابلس 1911-1912 والذي كان قد اتصل به في زاويته وطلب منه « الفاتحة » أي البركة، والإجابة السريعة عما طلبه منه[26]. وفعلا جهز الشيخ الهاشمي حملة عسكرية على نفقته الخاصة مؤلفة من حوالي 300 فارس بقيادة ابن أخيه محمد الأمين بن الشيخ محمد الإمام، وتوجهت الحملة نحو ليبيا لمقاومة الاحتلال الإيطالي[27]، حيث كان يقود المقاومة عبد الرحمان عزام باشا إلى جانب أنور باشا والأمير علي بن الأمير عبد القادر.

ومن الملاحظ أن الشيخ الهاشمي كان معدودا عند سليمان الباروني من أنصار الدولة العثمانية المتحمسين، ومعنى ذلك أنه كان في نظر الفرنسيين من أنصار حركة الجامعة الإسلامية.

وتظهر الأبحاث الجديدة أن الشيخ محمد الهاشمي قد استطاع أن يجند كثيرا من الأتباع لطريقته خلال الحرب العالمية الأولى، وسبب نجاحه يعزى إلى معارضته منع الفرنسيين المتاجرة مع غدامس[28].

رأي الشيخ ابن باديس في الشيخ الهاشمي:

« كان الشيخ الهاشمي شيخ الطريقة القادرية ـ رحمه الله ـ رجلا ذكيا، واسع الحيلة، بعيد النظر. أدرك بثاقب فكره أن ما عليه الطرقية من الجهل والجمود لا يمكن أن يستمر طويلا، وأن المستقبل للعلم لا محالة، فولى وجهه شطر العلم، وقدم أبناءه لجامع الزيتونة المعمور، وحبس أملاكه كلها على العلم، واشترط في حبسه أن تعمر زواياه بأهل العلم من أئمة ومدرسين ومتعلمين. واشترط في أبنائه

أن لا حظ لأحد في الحبس إلا إذا حصل على شهادة التطويع من جامع الزيتونة. وجعل الإشراف على الحبس لنظارة جامع الزيتونة. وبنى عمله هذا على أن أملاكه هي أول للمسلمين فلتعد بالنفع على المسلمين، فكان عمله هذا لم يسبقه إليه أحد من أمثاله. انتهى أمر الحبس إلى الشيخ عبد العزيز بمقتضى شرط المحبس، وتولى مشيخة القادرية[29]».

انتفاضة الشيخ الهاشمي في 1918/11/15:

احتاجت فرنسا في أواخر الحرب العالمية الأولى لليد العاملة لمصانعها لأن أغلب رجالها كانوا في واجهة الحرب. فطلبت الحكومة من القياد بأن يجمعوا لها كل من هو صالح للعمل من الكهول والشباب. وكان قانون التجنيد الإجباري لا يشمل سكان الجنوب. وعندما جاء هذا الخبر إلى القياد وباشروا تنفيذه ضج الناس من ذلك. وبدا لهم أن هذا تجنيد لجبهة القتال. واتصل أحد الأعيان بالشيخ الهاشمي وأطلعه على رسالة من الحاكم العسكري موجهة إلى كافة القياد تلزمهم بإرسال الشباب والكهول إلى بيرو عرب(المكتب العربي) ليسجلوا أنفسهم في قائمة الذاهبين إلى فرنسا لأن الدولة في حاجة إلى اليد العاملة، فنزل هذا الخبر كالصاعقة على الشيخ ومن معه، ورفض الناس أو أغلبهم هذا الطلب، وزج بالبعض منهم في السجن. ووقعت ضجة في الوادي وضواحيها، واتصل الشيوخ والعجائز بالشيخ الهاشمي الذي ذهب إلى الحاكم وحذره من العواقب الوخيمة لأن السكان في الجنوب معفون من التجنيد، ولما لم يجد أذنا صاغية من الحاكم، أوعز إلى مقاديمه بالقيام بمظاهرة شعبية تنطلق من عميش ليلا وتتوجه إلى مقر الحاكم. ووقعت التظاهرة وشارك فيها الجميع وصار الهتاف الجماهيري « لا نموت لفرنسا، نموت هنا[30]». وهناك من هتف للجهاد واسمه فرجاني محمد بن بالقاسم (حمه إباسه[31]). كما راسل الشيخ الهاشمي السلطان العثماني في تركيا باعتبار أن سوف جزء من الخلافة الإسلامية[32].

استيقظ الحاكم على هذا الهتاف واتصل بالشيخ الهاشمي طالبا منه تهدئة الجماهير، واتجه الشيخ صحبة الحاكم النقيب « بواز» لما يسمى بغوط الغاوي حيث وصلت الجماهير إلى هناك باتجاه السجن لإطلاق سراح المعتقلين، واتفق الشيخ مع الحاكم على أن يطلق سراح المعتقلين. وفي اليوم الموالي استدعي الشيخ إلى تقرت

بواسطة رئيس ملحقة الوادي « بواز» وعندما وصل أشعره الكومنده رئيس دائرة تقرت بأن القبطان بواز يجزم بما ثبت لديه أن المظاهرة وقعت بوحي منه، فأنكر الشيخ فأخبره الكومنده بأن الأمر يتجاوزه وهو الآن مستدعى إلى الولاية العامة بالجزائر[33].

ذهب الشيخ إلى الجزائر وألزم بالإقامة الجبرية بالجزائر العاصمة لينقل بعد ذلك إلى سجن بسكرة ومنه إلى سجن الكدية بقسنطينة, ريثما يقف أمام المحكمة العسكرية التي أصدرت ضده فيما بعد الحكم بالنفي من الوادي لمدة سنتين[34]. وبعد المحاكمة تم نقله إلى سكيكدة فكون فيها زاوية ومسجدا مازال موجودا تحت اسم" مسجد 20 أوت 1955". وبعد ثمانية أشهر حكم عليه بالخروج من سكيكدة وأرسل إلى الأغواط فكون فيها زاوية أيضا. وبعد أربعة أشهر كاملة تم نقله إلى تقرت فكون الزاوية الهاشمية بها عام 1920. وفي هذه الفترة رأى الحاكم العام الفرنسي في الجزائر أنه من الحكمة حصر نشاط هذا الرجل في مدينته, فأمر بإعادته إلى الوادي حتى لا تتوسع عملية إنشاء الزوايا الهاشمية التابعة للطريقة القادرية[35]. وكانت هذه العودة في شهر جويلية 1920, وقد خرج يومها سكان المنطقة لاستقباله وخصوه باحتفال منقطع النظير, غير أن المنية عاجلته فتوفى يوم 1923/09/23 ودفن بالبياضة, وخلفه أذكى أبنائه وأشجعهم, وهو الشيخ عبد العزيز الشريف[36]. والغريب في الأمر أن التاريخ أهمل حادثة الشيخ الهاشمي التي تسمى في المنطقة بـ " هدة عميش" أو" هدة الشيخ معمر" غير أن شاعر الثورة مفدي زكرياء قد خلدها في إلياذته حيث قال:

ويا وادي سوف العرين الأمين .... ومعقل أبطالنا الثائرين

ودرب السلاح لأوراسنا .... وقد ضاقت السبل بالسالكين

وضرغامها الهاشمي الشريف .... يذيق« بواز » العذاب المهين

وكم كان سوف لضم الصفوف .... وجمع الشتات الحريص الضمين[37]

ترك الشيخ محمد الهاشمي عددا من الأبناء منهم: إبراهيم، الطيب، عبد الرزاق (تولى المشيخة مدة ستة أشهر ثم مات)، عبد العزيز، عبد القادر، محمد الصالح[38].

الشيخ عبد العزيز الشريف:

ولد عام 1898م بزاوية والده بالبياضة، وكان توأما لأخته، كما أنه الابن الثالث للشيخ الهاشمي، يتصف بالفطانة وسرعة البداهة، حيث حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة حفظا جيدا، ثم غادر الوادي ليلتحق بجامع الزيتونة عام 1913. وكان أول الناجحين من بين أقرانه، إذ تحصل على شهادة التطويع بامتياز، وعاد إلى الوادي عام 1923 فأستخلف أخاه بعد وفاته وصار شيخا للطريقة القادرية في سوف مع ملحقاتها في كل من تقرت وبسكرة وسكيكدة والجزائر العاصمة.

كما كان يقوم بالإشراف على شؤون العائلة وعلى إخوته الذين يزاولون تعليمهم بجامع الزيتونة[39].

قال الشيخ ابن باديس في عبد العزيز ما يلي: « وفي السنة الماضية (1937) قبل الاجتماع العام كاتبني يرغب مني الانخراط في جمعية العلماء، فأجبته بأن الجمعية مفتحة الأبواب لجميع المسلمين، وأن الجمعية تأسست، وفي المؤسسين لها جمع كثير من شيوخ الطرق، وأن القانون الأساسي الذي وضع باتفاق الجميع ما زال معتمدا هو نفسه. فلما كان الاجتماع العام رشح للمجلس الإداري بصفته عالما وشيخا للطريقة القادرية، فأنتخب بما يقرب الإجماع[40] ».

طلب الشيخ ابن باديس من الشيخ الطيب العقبى أن يقدم الشيخ عبد العزيز إلى الحاضرين في المؤتمر السنوي العام لجمعية العلماء المنعقد يوم 1937/09/24م، فقال: « الشيخ عبد العزيز كان من شيوخ الطرق، أما اليوم فيجب أن تعرفوه بأنه جندي من جنود الإصلاح، ومن أعضاء جمعية العلماء ».

ثم أحيلت الكلمة إلى الشيخ عبد العزيز الذي أبدى تأسفه لتأخره عن الانضواء تحت لواء الجمعية، ووعد بأنه سيبذل كل مجهوداته في خدمة الإصلاح، وتبرع لهم بمبلغ 25000 فرنك وهو مبلغ هام في ذلك الوقت[41].

وقال الشيخ عبد العزيز: « إن الطرق بدعة، لا أصل لها في الدين، فحسبكم التمسك بالكتاب والسنة ». وقال أيضا: « أنظروا أيها الإخوان إلى الفرق بين العلماء وشيوخ الطرق، العلماء أتوكم مجتمعين لتبليغ العظات، وشيوخ الطرق يأتونكم متفرقين للسباق لأخذ الزيارات. الطرق شتتكم وأضرت بكم في دينكم

ودنياكم، والعلماء يريدون إرجاعكم إلى الكتاب والسنة وتعليمكم العلم الصحيح[42] »

لقد رتب الشيخ عبد العزيز زيارة لوفد من جمعية العلماء بقيادة الإمام ابن باديس في ديسمبر 1937 لتدعيم نشاطه وتكريس أفكار الحركة الإصلاحية في المنطقة، وكان من ضمن أعضاء الوفد: الشيوخ محمد خير الدين، والعربي التبسي، ومبارك الميلي، وحمزة بوكوشة[43].وقد كان لهذه الزيارة الأثر العميق عند الشيخ عبد العزيز دفعته لتكثيف نشاطه وتنقلاته عبر القرى والمداشر شمالا وجنوبا.

كما نظم الشيخ عبد العزيز زيارة للشيخ الفضيل الورتلاني إلى الوادي في آخر شهر جانفي من عام 1938، وكان هذا الشيخ يتقد حماسا بمواقفه الصريحة ونقده اللاذع، مما أغضب الحاكم الفرنسي رئيس ملحقة الوادي القبطان روبير تيرييه Robert Thiriet وهو صاحب كتاب:

(Les Populations Musulmanes du Souf et leur évolution politique)

حيث بدأ يترصد خطوات الشيخ عبد العزيز ويضمر له الشر، ولكن الشيخ لم يبال بملاحظات الإدارة المحلية، وزاد من تحركاته، وعقد عدة اجتماعات لفضح أعمال القياد وأعوان الإدارة الاستعمارية والمرابطين الذين يستغلون الشعب[44]، وهذا ما دفع الحاكم إلى دعوة الشيخ عبد العزيز وطلب منه الرخصة، ورد الشيخ بأن الزوايا منذ القديم تعلم بدون رخصة، وتكرر الأخذ والرد في الأمر حتى كانت الكارثة كما سنرى لاحقا[45].

ومن جهة أخرى نلاحظ إعلان الشيخ عبد العزيز في نادي الترقي بالجزائر يوم 1938/02/03 وذلك عندما انعقد مكتب جمعية العلماء، أنه مستعد للتبرع بمبلغ 300000 فرنك على الأقل في مشروع بناء جامعة إسلامية، أو معهد إسلامي يكون مقره مدينة بسكرة، وقد ارتاح كل من جمعية العلماء وبعض الصحف الوطنية، غير أن الإدارة الفرنسية لم ترتح لهذه المبادرة[46].

كما اهتم الشيخ عبد العزيز بتأسيس المدارس لنشر العلم والتعليم وفق مناهج جمعية العلماء، فحول جزءا من زاوية البياضة إلى أقسام للتعليم العصري، وفي شهر مارس 1938، وبعد بيع محصول التمر، وظف نقود هذه العملية في تهيئة

زاوية الوادي التي شرع فيها أبوه منذ سنوات خلت، لجعلها جامعة تستوعب أكثر من 500 طالب، جزء منهم يخضع للنظام الداخلي. ولهذا الغرض جهزت قاعتان كبيرتان للمحاضرات، و20 غرفة فردية، كما خزن لهم التمر والأرز. واستقدم لها أساتذة أكفاء من أمثال العلامة الشيخ محمد بن حمد من نفطة، وجعله مدرسا بزاويته بالوادي. وكذلك جاء بالشيخ عبد القادر الياجوري، والشيخ علي بن سعد خرن (من قمار). وقد استعان بهما في التدريس والدعاية إلى الإصلاح فازدهرت الحركة العلمية وقتذاك بالوادي ونواحيها مما أثار مخاوف السلطات الفرنسية[47].

موقف الإدارة الفرنسية من الشيخ عبد العزيز: (كارثة الوادي عام 1938)

تمكن الشيخ عبد العزيز يوم 1938/04/12 من جمع حوالي 12000 متظاهر أمام مقر الحاكم العسكري وذلك للتعبير عن استيائهم وتذمرهم لمدير الشؤون الأهلية الذي قدم إلى الوادي، مما جعله يستقبل الشيخ لمدة ثلاث ساعات، قدم الشيخ خلالها مطالب تدور حول:

1 - تدخل الإدارة الفرنسية في الشؤون الدينية للأهالي.

- غلق المدارس العربية الحرة والمساجد بدون مبرر.

- الاضطهاد الاستعماري الذي يئن الأهالي من وطأته.

- مسألة مراعاة الإرساليات التبشيرية من طرف الحكومة الفرنسية وتسهيل مهامها.

- عدم التكافؤ بين أجور الأئمة والأهالي الموظفين في السلك الديني، وأجور الآباء البيض والقساوسة الذين يعملون في الجزائر.

2 - مطالب أخرى حول سلوك القياد وأعوان الإدارة وخاصة من الناحيتين: الاقتصادية والاجتماعية.

3 - الحالة الاقتصادية المتدهورة للمواطنين[48].

ألقي القبض على الشيخ عبد العزيز ورفقائه يوم 1938/04/18. وقد وصف الشيخ ابن باديس وقائع الكارثة في جريدة البصائر عدد 121 بتاريخ 1938/07/08 كما يلي:

« عج وادي سوف يوم 18 أفريل بالجنود والعتاد، ورصعت رباه بالمدافع الرشاشة وأرعدت أجواؤه بأزيز الطائرات، فأوشك أهله ونساؤه وأطفاله وبيوته ونخيله أن تنسفهم قنابل الأرض أو تمحقهم صواعق السماء. فأذهلت المراضع ووضعت نحو الثلاثين امرأة حملها. أصبح الوادي على حين بغتة وقد عطلت أسواقه وسدت طرقاته، ومنع عنه الداخل والخارج، وضرب عليه نطاق شديد محكم الحصار. ألقي القبض على الشيخ عبد العزيز الهاشمي والشيخ علي بن سعد والشيخ عبد القادر الياجوري والسيد عبد الكامل بن الحاج عبد الله (أمين مال شعبة الوادي). وسيقوا إلى السجن بقسنطينة. وحشرت جماعات من الناس إلى المركز الإداري، وزج بهم في سجن الإيقاف هناك. ثم حكم على عدد وفير منهم بالنفي والسخرة، كل هذا والناس معتصمون بالصبر ومنتظرون للفرج... ثلاثة أسابيع ذاق فيها أهل الوادي ما ذاقوا، وطافت فيها الجنود شرقا وغربا وشمالا وجنوبا[49] ».

وقد عالج ابن باديس هذا الموضوع في عدة مناسبات، حيث قال في إحدى جرائد البصائر: « إن هؤلاء الشيوخ دخلوا السجن ضحية عقيدتهم الإسلامية وقيامهم بواجبهم الديني نحو إخوانهم المسلمين أهل ديار سوف[50] ».

مكث الشيخ مع رفاقه بالسجن حوالي أربع سنوات[51]. وفي أوائل عام 1942 صاحب إطلاق سراحه قرار إبعاده إلى سكيكدة فبنى بها مدرسة لتعليم البنين والبنات، ومنها إلى شرشال التي بنى بها مسجدا ومدرسة الرشيدية أشرف على تسييرها بنفسه وتخرج منها كثير من العلماء. ومنها نفي إلى أزفون بولاية تيزي وزو التي بنى بها مسجدا. وأخيرا إلى الجزائر العاصمة فبنى بها مدرسة لتعليم العربية في المدنية (صالمبي) ساهمت في نشر الثقافة العربية بين أبناء الوطن[52].

مع العلم بأنه اشترى قصر الداي عام 1940 بثمانية[53] ملايين فرنك وأصلحه، وجعله مدرسة وكان من بين تلاميذها الوزير السابق الدكتور بوعلام بن حمودة غير أن الإدارة الاستعمارية استرجعته عام 1947 وعوضت له نفس المبلغ[54].

وفي عام 1953 أبعد إلى تونس، ونزعت منه المواطنة الجزائرية. حاول بعدها الرجوع إلى الوادي بدون جدوى. وعند اندلاع الثورة أيدها ماديا ومعنويا بحيث

وضع أمامها محلات ودكاكين من أملاكه تستعملها الجبهة في أغراض الثورة كإيواء المجاهدين وأبناء الشهداء وإسعاف المرضى، ومكاتب إدارية وغيرها. واستمر الشيخ في تدعيم الثورة حتى تحصلت الجزائر على استقلالها، ففتح من جديد زاويته بالوادي لتكون أول معهد إسلامي تدرس فيه مناهج وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، غير أن الشيخ لم يعد إلى أرض الوطن بسبب مرضه، ووافاه الأجل المحتوم في 1965/06/01م، ودفن بتونس[55].

أما الشيخ عبد القادر أخوه، فقد اشترى هو بدوره قصر منوبة عام 1946 بتونس، وتنازل عنه لفائدة الحكومة الجزائرية المؤقتة حيث رفع عليه أول علم جزائري ونصبت فيه أول حكومة جزائرية مما كلفه ستة أشهر سجنا من الحكومة التونسية[56].

ومما سبق نستنتج أن عائلة الشيخ محمد الهاشمي قدمت كل ما في وسعها لفائدة الوطن، غير أن التاريخ الموجه تنكر لها ولم ينصفها حقها، فهل من مؤرخ نزيه يعيد الاعتبار المعنوي لعائلة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف ويضعها في موقعها التاريخي الصحيح؟.

الهوامش :

1- صلاح الدين الشريف، المجاهد الشيخ محمد الهاشمي بن الشيخ إبراهيم الشريف (1853 - 1923)، محاضرة غير منشورة، ص 27 - 29. ارجع أيضا إلى:
G.P.J.(André): Confréries Religieuses Musulmanes, édition la aison de livre, Alger, 1956, P.41.

2- د/ إبراهيم مياسي، « جهاد الشيخ عبد العزيز الشريف »، الثقافة، رقم 109، يوليو- أغسطس 1995، ص 164.

3- انظر: G.P.J.(André): OP. Cit., P.41.

4- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر2000.

5- انظر: G.P.J.(André): OP. Cit., PP.42-43.

6- باديس قدادرة، « الشريف الهاشمي ». الشروق. 141 من 18 إلى 25 جانفي 1994، ص1.

7- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.

8- انظر: G.P.J.(André):OP.Cit., PP.43-44; Depont et Cappolani: Les Confréries Réligieuses, Alger 1897,P 307.

9- مقابلة مع الشيخ عبد الوهاب حليم، إمام، نفطة، تونس، جويلية 1999.

10- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.

11- مقابلة مع الشيخ عبد الوهاب حليم، إمام، نفطة، تونس، جويلية 1999.
12- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.
13- مقابلة مع الشيخ عبد الوهاب حليم، إمام، نفطة، تونس، جويلية 1999.
14- مقابلة مع الشيخ الأزهر الشريف، معلم متقاعد، رأس العيون، تبسة، جويلية 2001.
15- مقابلة مع الشيخ عبد الوهاب حليم، إمام، نفطة، تونس، جويلية 1999
16- انظر: G.P.J.(André): OP. Cit., P. 45.
17- مقابلة مع الشيخ عبد الوهاب حليم، إمام، نفطة، تونس، جويلية 1999
18- مقابلة مع الشيخ محمد بن إبراهيم حساني، شيخ الزاوية القادرية، الرويسات، ورقلة، 2000.
19- د/ أبو القاسم سعد الله، « محمد الطيب بن إبراهيم ». الثقافة . 113، 1996، ص 64؛ جورج باري، مجلة روكاي، 1915.
20- د/ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، طبعة بيروت 1998، ص 49.
21- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.
22- مقابلة مع الشيخ عبد الوهاب حليم، إمام، نفطة، تونس، جويلية 1999.
23- صلاح الدين الشريف: المرجع السابق ص1.
24- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.
25- انظر: G.P.J.(André): OP. Cit., P. 41.
26- د/ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ص 53-54.
27- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.
28- د/ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ص 54-55.
29- البصائر عدد 95.
30- حمزة شنوف، الشيخ الهاشمي الشريف وانتفاضة وادي سوف 1918. محاضرة مرقونة ألقيت بورقلة بثانوية ملاح بمناسبة الموسم الثقافي، أفريل 1987.
31- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.
32- د/ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ص 54.
33- حمزة شنوف: المرجع السابق.
34- د/ عمار هلال « الشيخ عبد العزيز بن محمد الهاشمي، مواقفه من السياسة الاستعمارية وحركة الإصلاح بمناطق وادي سوف » محاضرة الندوة الفكرية السادسة محمد الأمين العمودي، ماي 1993، ص 43.
35- صلاح الدين الشريف: المرجع السابق ص 16.
36- د/ إبراهيم مياسي: المرجع السابق ص 164.
37- مفدي زكرياء: إلياذة الجزائر. طبعة الجزائر 1998، ص 76.
38- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.
39- د/ إبراهيم مياسي: المرجع السابق ص 163-165.
40- الشهاب، الجزء الثامن من العدد 13، شعبان 1356، أكتوبر 1937، ص 344.
41- د/ إبراهيم مياسي: المرجع السابق ص 169.
42- البصائر، عدد 95.

43- د/ إبراهيم مياسي: المرجع السابق ص 169.
44- المرجع السابق ص 174.
45- المرجع السابق، ص 174-175، 177.
46- د/ عمار هلال: المرجع السابق ص 46.
47- د/ إبراهيم مياسي: المرجع السابق ص 175-176.
48- د/ عمار هلال: المرجع السابق ص 48.
49- البصائر، عدد 121 بتاريخ 1938/7/8.
50- البصائر، عدد 134 بتاريخ 1938/10/7.
51- د/ إبراهيم مياسي: المرجع السابق ص 181.
52- د/ عمار هلال: المرجع السابق ص 50.
53- بوصبيع العايش علي، « الشيخ الشريف عبد العزيز المصلح الثائر »، محاضرات الندوة الفكرية السادسة محمد الأمين العمودي، ماي، 1993، ص 38.
54- د/ إبراهيم مياسي: المرجع السابق ص 29.
55- بوصبيع العايش علي: المرجع السابق ص 40.
56- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.